غزل أبي فراس*

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

غزل أبي فراس قصير النفس ، لا يكاد يتجاوز ما أنشأه للغزل قصدا البيتين والثلاثة غالبا ، مكتفيا بذلك في التعبير عما ألم به ، من انفعال سريع .

أعرف شاعرنا الحب ؟ أم أن غزله تقليدي لا ينبعث عن حب ولا عاطفة ؟

أرجح أن الشاعر عرف الحب وتأثر به ، بدليل هذه القطع التي نظمها خاصة في النسيب ، ولم يقف عند حد المقدمات التي يفتتح بها بعض قصائده . ولم يكن أبو فراس ممن ينشىء الشعر إلا ترجمة لعاطفة ، وتعبيراً عما في نفسه ، ولكننا نكاد نلمس أن هذا الحب ، ما كان يشتمل من هذه النفسية الشاعرة إلا حيزاً محدوداً صغيراً ، لأن هذا القلب الكبير كان في شغل بكبار الأماني وسامي الآمال ، ولم يدع ذلك منه إلا فراغا يسيرا تشغله هذه العاطفة القوية .

عرف شاعرنا الحب ، ولعل من بادئها تلك العاطفة كانت قريبة له ، وربما كانت جميلة بنت ناصر الدولة ، فإنه أنشأ قصيدة يودع بها بعض أهله ، وقد خرجت تسعى إلى الحج ، وهذه القصيدة تفيض بعواطف حارة متدفقة ، ينم منها بكاؤه ، ويذكيها في صدره ما امتازت به تلك الفاتنة من غرام بالصون ، وحب للحجاب حتى ليكاد وجهها تحق ممالله على خدرها ، وها هو ذا يقص علينا حديثه يوم سافرت تلك الحبيبة المصونة ولطالما جميلة :

أشيعه ، والدمع من شدة الأسى ... على خده نظم ، وفي نحره نثر
رجعت ، وقلبي في سجاف غبيطه ... ولي لفتات نحو هودجه كثر
وفيمن حوى ذاك الحجيج خريدة ... تعادون عطف الستر من صونها ستر
وفي الكم كف لا يراها عدابها ... وفي الخدر وجه ، ليس يعرفه الخدر

وقد سجل في هذه القصيدة شعورا صادقا حيا . وإن شدة شعوره بحيوية تلك الحبيبة ، جعلته يحس كأنها تبعث الحياة فيما يحيط بها ، حتى في النبات والجماد ، فيقول :

فهل عرفت عارفات بزورها ... وهل شعرت تلك الشاعر والحجر
أما اخضر من ريحان مكة ماذوى ... أما أعشب الوادي ؟ أما أنبت الصخر

وقد أنشأ هذه القصيدة في النزل خاصة ؛ وهي أطول شعره فيه ، وربما ذاق من هذا الحب ، ما شجاه حينا وأضناه ، حتى صح له أن يقول :

أمنية بالمقل ، رفقا بقلبه ... أيحمل ذا قلب ، ولو أنه صخر ؟
عذيري من اللائي يلمن على الهوى ... أما ق الهوى لو ذقن طعم الهوى عذر
ومنكرة ما عاينت من شحوبه ... ولا عجب ما عاينته ، ولا نكر
وقائلة : ماذا دهاك تعجبا ؟ ... فقلت لها : ياهذه ، أنت والدهر
أبالبين ، أم بالهجر ، أم بكليهما ... تشارك فيما ساءني البين ، والهجر

كان صدق إحساس أبي فراس بالحب ينبوعا لتعبيرات صادقة عن عواطف صادقة ، فهو يخشى على حبيبه أن تمسه العيون بأذاها فيستحثه أن يرد عليه لثامه :

أياسافرا ، ورداء الخجل ... مقيم بوجنته ، لم يزل
بعيشك ، رد عليك اللثام ... أخاف عليك جراح المقل
فما حق حسنك أن يجتلى ... ولا حق وجهك أن يحتل

ويتقبل ظلم حبيبه ، بنفس راضية ، بل متلذذة بهذا الظلم :

وبعض الظالمين وإن تناهى ... شبيه الظلم مغفور الذنوب

(*) من كتاب « شاعر بني حمدان » الذي يظهر في هذا الأسبوع

في العالم الخارجي المحسوس ولا يقره العقل . أو ليست الحقيقة البسيطة الملموسة التي تؤكد نفسها علينا كل لحظة هي استحالة وجود رجلين متساويين في الخلق والمواهب والقدرة ؟ أولا ترون أن الفيلسوف هكسلي لم يكن متمردا من أن يهزأ علنا من تصور "Common man" وحقوق الإنسان الطبيعية ؟ فهل تقنع بوجوب إستبدال أرستقراطية العقل والذكاء بأرستقراطية الحسب والمال ؟ حقا ! لا ينشأ تصور المساواة بين الناس إلا بالنظر إلى علاقتهم جميعا مع خالق الزمان والمكان ومصرف الكون والفساد .

السيد محمد يوسف

ويقر أنه مذنب ، وإن لم يجن ذنبا ، ويتوب عن إثم لم يقترفه

أقر له بالذنب والذنب ذنبه ويزعم أني ظالم فأتوب

ويتصدى بالهجر علما بأنه إلى على ما كان منه حبيب

ويجد في الهجر القصير الأجل لذة تجدد الحب :

إنما يحسن الهاجر يوما فإذا كان داعما فقبيح

كل هجر يدوم يوما إلى الليل ، ويفنى ، فذاك هجر مليح

ويتخيل حبيبه وقد غاب عنه ، فيصوره في شعره ، ويتساءل : أينساه وقد غاب عنه :

وبالهارين إنسان له في القلب داران

إذا ماماس في القر طن يسمى بين أحدان

رأيت البدر فديا ن على غصن من البان

وخدا يجتنى الور د ، به ، في كل إبان

ألا ياصاحبي رحلي ، بالله أجيباني

ترى من لست أنساه على الحالات ينساني

ويتحمل إذلاله ويحفظ عهده ، لأنه ليس له عنه معدى ولا متحول :

نبوة الإذلال ليست عندنا ذنبا يعد

قل لمن ليس له عهد : لنا عهد ، وعقد

جملة تغنى عن التفصيل : مالي عنك بد

إن تغيرت فما غير ما لك عهد

ويقبل ذلة الحب برغم أنه أمير من بيت الملك :

وياخلة أنالتني قليلا وقد يرضى القليل من البخيل

قنعت به ، وكنت أظن أني عزوف النفس عن نيل قليل

ولكني وجدت الحب يكسو عزيز القوم أثواب الذليل

وما كان يرى ذل الحب إلا عزاً :

بنفسي التي أخفت مخافة أهلها وداعي ، وأبدت حين أبدت لنا رمزا

فلم أر مقتولين : مثلي ومثلها أذلا ، وإن كانا لسمر الهوى عزا

ويستسلم للحب وإن قوبل بالجفاء :

وكفى الرسول عن الجواب نظارها وإن كفى ، فلقد علمنا ما عنى

قل يارسول ، ولا تحاش ، فإنه لابد منه ، أساءني ، أم أحسنا

الذنب لي فيما جناه ، لأنني مكنته من مهجتي ، فتمكنا

ولكنه يثور على الحب إذا كان فيه غدر وخيانة :

الآن حين عرفت رشدي ، وافتديت على حذر

ونهيت نفسي فانتهت ، وزجرت قلبي فازدجر

واقد أقام على الضلالة ، ثم أذعن واستقر

الحب فيه مذلة ، إلا على الرجل الذكر

هيهات ، لست أبا فراس ، إن وفيت إن غدر

وتلك ثورة نفسية ، تدرك الحب إذا رأى الغدر ممن يحب .

هذا ، وأرجح أن الحب الذي كان بينه وبين قريبته كان حبا طاهراً عفيفاً ، تحوطه شدة الصيانة من جانب الحبيبة . وأغلب الظن أن هذه الليالي التي غلب الحر فيها عقل من هوى ، والتي يصف واحدة منها بقوله :

وزيارة من غير وعد في ليلة طرقت بسعد

بات الحبيب إلى الصباح معانق ، خدا لخد

يتسار في وناظري ماشئت من خمر وورد

قد كان مولاي الأجل فصيرته الراح عبدي

ليست بأول منة مشكورة للراح عندي

لم تكن مع هذه القريبة المحتشمة .

وقد ذكرنا أن أبا فراس قد أخذ بنصيب من اللهو ، ولعله كان يرى أن الحب لا يحول بينه وبين المتعة ، إذا ظفر بها .

ومن مجموعة شعر أبي فراس نستطيع أن نرسم صورة للمرأة المثالية عنده ، فهي البيضاء ، المتوردة الخد ، الفاترة الجفن ، ذات الشعر الفاحم ، الممشوقة القد ، الناهدة الصدر ، الهيفاء الخصر ، في غير هزال .

وتغزل أبو فراس بالغلمان كذلك ؛ وإن هذا الداء الوبيل قد وجد سبيله إلى قلب شاعرنا ؛ وكانت البيئة التي عاش فيها تساعد عليه ؛ فقد كان أميره ومثله الأعلى سيف الدولة يعشق غلاما تركيا اسمه بشارك .

تغزل أبو فراس في غلمانه ، وترك من هذا الغزل مقطوعات قصيرة كذلك ، وبعضها يفيض بالرقة والحنان ، يقول :

الورد في وجنتيه والسحر في مقلتيه

وإن عصاني لساني فالقلب طوع يديه

يا ظالما ، لست أردي أدعو له ، أم عليه

واسم هذا الغلام منصور ، وله غلمان آخر ، وإن كان لمنصور الغلب على قلب الشاعر . ولسنا ندري جنسيته على وجه التحقيق ، ولا إن كان هو المقصود بتلك الأبيات التي يتغزل فيها بملوك فارس ، وقد استغل الشاعر فيها معركة ذي قار ، التي كانت لقبائل

العرب زمن بيتها تغلب قبيلة الشاعر على الفرس ، وقد أحسن هذا الاستغلال حين قال :

بأبي شادن ، بديع الجمال ... أعجمي الهوى ، فصيح الدلال
سل سيف الهوى على ، ونادى ... بالثأر الأعمام والأخوال
كيف أرجو من رى النار عندى ... خلفا من نطف ووصال
مادرت أسرتى بذى قار أنى ... بعض من جندلوا من الأبطال
أيها اللؤى جرائر قومى ... بعد ما قد مضت عليها الليالى
« لم أكن من جناتها علم الله ، وإنى بحرها اليوم صالى »

ولأبى فراس ، غير هذا الغزل الحقيقى ، غزل تقليدى يفتتح به قصائده ، ولا يريد به غالباً التعبير عن عواطف تجيش فى نفسه . وهو فى هـذا الغزل يتشبه بالأقدمين فى وقوفهم على الديار ، وسؤالهم الأطلال :

على ربع الـــعامرية وقفة ... يطل على الشوق والدمع كاتب
فلا ، وأبى العشاق ، ما أنا عاشق ... إذا هى لم تلعب بصبرى الملاعب
ومن مذهبى حب الديار لأهلها ... وللناس فيما يعشقون مذاهب

وفى هذا الغزل التقليدى يبدو الضعف ، والمثالة والصناعة اللفظية ، وتكرير المعانى المألوفة ، ولا تحس بروح الغزل القوية المتدفقة ، وأى قوة فى قوله :

قلوب فيك دامية الجراح ... وأكباد مكلمة النواحى
وحزن لا نفاد له ، ودمع ... يلاحى فى الصبابة كل لاح
أتدرى ما أروح به ، وأغدو ... فتاة الحى : حى بنى رياح
ألا يا هذه ، هل من مقيل ... لضيفان الصبابة أو سراح

وترى التشبيهات المتداولة بالشمس والغزالة والأقحوان ، كما تلحظ فى هذا الغزل أبداً التناقض ، وعدم الوقوف عند المعقول . نجد هذا التناقض فى قوله :

إن الحبيب الذى هام الفؤاد به ... ينام عن طول ليل ، أنت ساهره
ما أنس لا أنس يوم البين موقفنا ... والشوق ينهى البكا منى ، ويأمره
وقولها ، ودموع البين واكفة ... « هذا الفراق الذى كنا نحاذره »

فحبيب تكف دموعه ومحذر الفراق ، لا ينام عن طول ليل يسهره صاحبه . ويبدو البعد عن حدود المعقول فى قوله :

تسائلنى من أنت ؟ وهى عليمة ... وهل بفتى مثلى على حاله نكر
فقلت كما شاءت وشاء لها الهوى ... قتيلك ، قالت : أيهم فهم كثر

ووجه الغرابة فى هذا أن الشاعر قد أخبرنا فى هذه القصيدة نفسها أنها قد وعدته بالوصل ، وأنه أحب البدو من أجل حبها ، وحارب قومه فى سبيل هواها ، ولا يعقل بعد ذلك أن تجهله الحبيبة ولا تدرى من هو ؟ وهى التى يقول فيها :

معللتى بالوصل ، والموت دونه ... إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر
بدوت ، وأهلى حاضرون ، لأننى ... أرى أن دارا أنت من أهلها الفقر
وحاربت قومى فى هواك ، وإنهم ... وإياى ـ لو لاحبك ـ الماء والخمر

نلاحظ فى غزل أبى فراس ، سواء الحقيقى منه والتقليدى ، أنه غزل فارس ، تلمس فيه روح الفتوة ، وتجد منثوراً بين أبياته لثة الفرسان المحاربين ، ويأخذ من هذه اللثة تشبيهاته واستعاراته ، فتسمعه يقول :

أغرض على قلبى بخيل من الهوى ... فطارد عنهن النزال المنازل
بأسهم لفظ لم تركب نصالها ... وأسياف لحظ ، ما جلتها الصياقل
وقائم قتلى الحب فيها كثيرة ... ولم يشتهر سيف ، ولا هز ذابل
أراميتى ، كل السهام مصيبة ... وأنت لى الرامى ، فكلى مقاتل

ويقول متعجباً كيف يمد حبيبه جيش سقامه بالهجر ، فينصره :

بالله ربك ، لم فتنت بصبره ... ونصرت بالهجران جيش سقامه

وفى سبيل طاعة الحب ، قد استشهد الصبر والسلو :

مالى بكتمان هوى شادن ... عينى له عين على القلب
عرضت صبرى وسلوى له ... فاستشهدا فى طاعة الحب

ويشبه طرة من يحب بالورد المضاعف :

ومرتد بطرة مسدولة الرفارف
كأنها سبلة من زرد مضاعف

أبو فراس حين يجعل النزل مقدمة لأغراض أخرى ، يجتهد غالباً فى أن يجعل روح النزل مناسبة لروح الموضوع الذى يقصد إليه ، وهل أنسب من هذا النزل العاتب يبدأ به عتابه لسيف الدولة :

أما الجميل عندكن ثواب ... ولا لمسيء عندكن متاب

أو أنسب من البدء بإهداء التحية لمن يحبهم ، فى قصيدة يحيى بها إخوانه فى الوصل ، إذ يقول :

سلام ، رائح ، غادى على ساكنة الوادى

أو من البدء بهذا النزل الحزين ، الذى يشكو الفراق فى قصيدة أرسلها إلى أخيه ، وهو أسير :

فديتك إنى للصبابة صاحب ... وللنوم مذ زال الخليط مجانب
وما أدعى أن الخطوب تجانبنى ... لقد خبرتنى بالفراق النوائب

ولكن الشاعر فى أغلب الأحيان ، ما كان يحسن التخلص من النزل إلى الغرض المقصود ، بل كان انتقاله فجائيا ، وهو

في ذلك يشبه البحتري زعيم شعراء الشام. فها هو ذا — مثلا — يتغزل، ويختم غزله بقوله:

وقد هاديت ضوء الصبح حتى لطرق عن مطالعه ازورار

ثم ينتقل إلى الفخر قائلا من غير أن يحسن التخلص:

ومضطغن يراود في عيبا سيلقاه إذا سكنت وبار

وفي بعض الأحيان يحسن التخلص، كما في تلك القصيدة التي بعث بها إلى ابن عمه أبي زهير، وفيها يقول:

يا أخي يا أبا زهير، ألي عندك عون على النزال الغرير ؟!

لم تزل مشتكاي في كل أمر ومنبئي، وعمدتي، ومشيري

وهكذا يمضي في حديث ابن عمه

وقبل أن أختم الحديث عن غزله، أشير إلى ما يبدو في هذا النزل حينا، من شعور أبي فراس بنفسه محبوبا، وأنه ليس شخصا عاديا، ولكنه يحب جدير أن يقابل بغبطة من يحبه، وأن يضم عليه بالنواجذ، فتسمعه يقول.

أجلي يا أم عمر زادك الله جمالا

لا تبيعي برخص إن في مثلي غلا

بل لقد تدلل مرة على من يحب، حتى شكته إلى إحدى جاراتها:

قامت إلى جارتها تشكو بذل وشجا:

أما ترين ذا الفتى مر بنا ما عرجا

إن كان ما ذاق الهوى فلا نجوت إن نجا

وليس ببعيد أن تعجب بأمير وسيم مثله، بعض أولئك الجميلات اللاتي كن يرينه في غدواته ورواحه.

أحمد أحمد بدوي
مدرس بكلية دار العلوم

مصلحة السجون

إعلان مناقصة

تقبل العطاءات بمكتب سعادة المدير العام لغاية الساعة ١٢ ظهر يوم ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٤٩ عن عمليتين كهربائيتين بسجن مزرعة طرة والملعب الرياضي بطرة. ويمكن الحصول على الشروط مقابل ١٠٠ مليم من كل من العمليتين يضاف إليه ٣٠ مليم أجرة البريد وتقدم الطلبات على ورقة دمغة من فئة ثلاثين مليما.

٣٤٨٢

ثلاثة كتب

جديرة بأن تزدان بها مكتبتك

تأليف

محمود تيمور بك

— ١ —

إحسان الله

أحدث مجموعة قصصية للمؤلف

— ٢ —

المخبأ رقم ١٣

كتاب يحوي نسختين من هذه القصة الطريفة

الأولى بالفصحى والثانية بالعامية

— ٣ —

اليوم خمر..!

قصة النفس الإنسانية الحائرة

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بشارع الفجالة بالقاهرة